البلاغة في عنوان الكتاب العربي

د. طه محسن
جامعة بغداد – كلية الآداب

للكتاب في منهاج أُمتنا الفكري ، والتربوي ، والتعليمي منزلة رفيعة ؛ نـوّه الله تعالى به ، وعظّم شأنه ذوو الفضل من العلمـــاء ، والأُدبـاء ، والمربيـن ، والمفكرين . وأفتخروا بالانتساب إليه ، واقتنائه ، وصحبته ، وإهدائه ، واستهدائه. وقد وصل إلينا من أخبار سيرتهم معه ، سلوكاً وحديثاً ، ما لو جمع لملأ مصنفـا كبيرا[١] .

ولمنزلته العليّة تلك أستحق ان يُعطيه المؤلفون عنواناً لائقاً ، واسماً رائقـاً هو وجهه الذي يفصح عن فحواه . وذلك ما أردت الحديث عنه في هذا المقال .

العنوان في اللغة ما أستدللت به على الشيء . وعنوان الكتاب ، بضم العين وكسرها . وأصله : عُنّان ، كرُمّان ، فلما كثرت النونات قلبت إحداها واواً . وعنّ الكتاب يعنّه عنّاً ، وعنّنه تعنيناً ، كتب عنوانه[٢] .

وكذا عنونه يُعنونهِ . قال علي بن بسّام[٣] .

رأيت لسان المرء رافد عقله

وعُنوانه ، فإنظر بماذا تعنـــون

وليس بين أيدينا ما يشير إلى أول من وضع عنواناً لمصنَّفٍ فـي تـاريخ التأليف عند العرب ، على الرغم من وصول رسائل من القـرن الأول الـهجري نسب بعضها إلى قسم من الصحابة والتابعين ، مثل عبد الله بن عباس ، وسعيد بن جبير – رضي الله عنهم – .

إلا أننا نلحظ بروز العنوان للكتب المؤلّفة بعد ذلك القرن بشـكل ظـاهر ، وإن كان بعض المؤلفين قد تركوا مؤلفان من غير أن يضعوا لها أسماً ، كما هـو ملاحظ في المجموعات الشعرية التي وصلت إلينا من نهاية القرن الثاني وبدايـة

الثالث ، كالقصائد التي جمعها المفضل الضبّي (ت١٧٨هـ) والأصمعي (ت ٢١٦هـ) ، وما كتاب سيبويه (ت ١٨٠هـ) بخافٍ على القارئ .

إنّ من خصائص العنوان للكتب المصنفة في القرون الثلاثة الهجرية الأولى إيجازه ، وبساطته ، وخلوّه من الصنعةِ والتطويل . إذ كانت الغاية التعريف بمادة الكتاب بأقلّ لفظ ، وأقرب سبيل . وهذا ما نجده في مؤلفات الرعيل الأول من الباحثين وتلامذتهم ؛ فنحن نقرأ لآثارهم هذه التسميات : (الإكمال في النحو) و (العين في اللغة) و (الأصنام) و (معاني القرآن) و (الأشتقاق) و (النوادر) و (عيون الأخبار) و (الأمثال) و (البيان والتبيين) و (المقتضب في النحو) و (الفصيح) ... وهكذا .

وما خالف هذه السمة مما نسب إلى المتقدمين في الزمن فأنّ له حاجة إلى إثبات صحة هذه النسبة ، وذلك مثل الكتابين المنسوبين إلى محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) الموسومين بـ (منتخب الكلام في تفسير الأعلام) و (الإشارة في علم العبارة)[٣] .

ولما ضربت الحضارة أطنابها في المجتمع بعد تلك القرون الأُولى وتقدمت العلوم ، كثرت المؤلفات كثرة وافرة . وكان للأدب في مختلف فنونه خطّ زائد من الأهتمام والتأليف . فوضعت قواعد النظم ، ومعايير البديع ، وضوابط النقد . وصنف الناس في فنون القول ، وفصاحته . وبحثوا عن أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وشغفوا بقصر العبارة . فصارت أقوالهم حكماً موجزة ، وأمثالاً سائرة، وتوقيعات بليغة .

وكان لهذا الاهتمام صداه في عنوانات الكتب ، فجاءت في غالبها جملاً تحمل جمهرة من فصيح اللفظ وبليغه . فأخذنا نطالع على جوانبها هذه الأسماء[٤].

- الدرّ المنظوم في حقائق العلوم ، لموهوب بن عمر الجزري ت ٦٧٥هـ.
- و: بغية السالك إلى أشرف المناسك لمحمد بن محمد الأندلسي ت ٨٠٣هـ.
- و : الحواشي الرشيقة على العروة الوثيقة، لعبد القادر العيدروسي ت١٠٢٨هـ .

إنّ أول ما يلاحظ على شكل العنوان الذي جعلته محور دراستي هو طريقة صياغته . إذ قامت ، في الغالب ، على البدء بلفظ مختار يتبعه لفظ على جهة (الوصف) أو (العطف) أو (الاضافة) . أو البدء بموصول تتبعه صلته ، ثم يتلوه ما يشير إلى مادة الكتاب والموضوع الذي أُلف فيه ، مرتبطاً بما سبقه غالبا بحرف جرّ : يكون كثيراً الحرف (في) أو ما يناسب العامل قبله . ومن أمثلة ذلك:

- الأجتهاد في طلب الجهاد ، لأبن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ .
- و : الأجر الجزل في الغزل ، لجلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ .
- و : المآثر والمفاخر في علماء القرن العاشر ، لشهاب الدين الشعراني ت ٩٧٣هـ .
- و : أتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء ، للسيوطي .
- و : ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، للسيوطي .

وقد يطول المطلع بسبب العطف على بدايته أو ذكر بعض متعلقاته ، كما هو في هذه الأسماء .

- تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب ، في ذكر مجازات العرب، للأعلم الشنتمري ت ٤٧٦هـ .
- و : الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، لعلي بن محمد بن أبي زرع . ألفه قبل سنة ٧٢٦ هـ .

هذا هو الشائع ، أعني الأعتماد على مطلع للعنوان ، ولكنّ المؤلف ربّما يصرح بالمضمون ابتداءاً من غير التقديم بشيء ، مع مراعاة الصنعة فيه ، مثل :

- تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ، لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ .
- و : أحكام كلّ وما عليه تدلّ ، لتقي الدين السبكي ت ٧٥٦ هـ .
- و : أخبار الدول وتذكار الأُول ، محسن بن عمر الحلبي ت ٧٧٩ هـ .

وحين ننعم النظر في هذه الصيغ يتبين لنا غناؤها بالمادة اللغوية والأدبية، ذلك أنّ المؤلفين كانوا يملكون ذخيرة لغوية مكّنتهم من ناصية التعبير ، فلم يعسر

عليهم الوصول إلى القصد بأساليب متلونة ؛ لكثرة مدارستهم كتب الأدب ، ومصنفات اللغة ، وأستظهار نصوصها منذ نعُومة أظفارهم .

هذا المحصول ظهر أثره في عنوانات كتبهم التي تضمنت ثروة من المفردات ، وأنواعاً من تصاريف الكلمات تتعلق بالجموع ، والمصادر ، والمشتقات ذات الأوزان المختلفة ، وغيرها مما يدخل في باب التصريف من علوم اللغة . كما تضمنت أساليب بيانية أنسبك فيها المعنى بتعبير رقيق .

فالمرء ، وهو يقلب بصره في فهارس المؤلفات أو يجيله في مكتبة عربية، يطلع على عنوانات تنوعت دلالاتها ومعاني ألفاظها ، فيجد من ذلك ما يدلّ على معاني الخلوّ والامتلاء ، وعلى النبات ، والحيوان ، ومظاهر البيئة ، وآثار البلاد، وعلى المشحوم والمشروب والمطعوم ، وما يدلّ على المعادن النفيسة ، والأحجار الكريمة ، وأنواع الحلية والزينة ، وعلى الأنواء والفلك وما يسمّى الآثار العلوية ، وعلى عُدّة القتال ووسائل الحرب .. وغيرها .

ومن ذلك[٥] .

- نقْعة الصديان في ما جاء على الفعْلان ، للصاغاني ت ٦٥٠هـ .
- و : روض الرياحين في حكايات الصالحين ، لعبد الله اليافعي ت ٧٦٨هـ.
- و : البازي الأشهب المنقض على مخالفي المذهب ، لابن الجوزي ت ٥٩٧هـ.
- و : الينبوع في ما زاد على الروضة من الفروع ، للسيوطي .
- و : مراتع الغزلان في وصف الغلمان ، لشمس الدين النواجي ت ٨٥٩هـ .
- و : النفحة العنبرية في مولد خير البرية ، للفيروز أبادي ت ٨١٧ هـ .
- و : الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن نافيا البغدادي ت ٤٨٥ هـ .
- و : النسيم الطيب في ترجمة أبي الطيب ، لابن فرفور ت ١٠١٠ هـ .
- و : الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لابن تيميّة ت ٧٢٨ هـ .

وليس من وكْدي الإتيان على أمثلة المعاني التي تدينتُها في العنوان ، فهي كثيرة جداً ، تستغرق مصنفاً ، أو قل معجماً مفيداً ، ولكني أريد أن أخلص إلى الكلام على الجانب البلاغي فيه .

لعل القارئ قد لمس ، من خلال النصوص المتقدمة ، ما في تأليفها من أناقة في تناسب الألفاظ ، وتشابه الأطراف والفواصل .. وأحس بما في صياغتها من نغم وجرس صوتي .

هذا ما حرص عليه المؤلفون الذين طرّزوا جوانب كتبهم بزخرف البيان والبديع ، وأساليب البلاغة التي سأسوق جانباً من أمثلتها .

فـ (البيان) له أثر في العنوان ، ولا سيّما الإستعارة ، التي هي تشبيه حذف أحد طرفيه ، إما المشبّه ، وإمّا المشبّه به . فمما ورد منها :

- (سَقْط الزَّند) ديوان شعر لأبي العلاء المعريّ ، ت٤٤٩ هـ ، قال الحاج خليفة ت ١٠٦٧ هـ : (والسَّقْط : ما يسقط من النار عند القدح . وإنّما سمّي هذا المدوّن بذلك لأنه مما أنشأه في شبابه ، فشبّه شعره بالنار ، وطبعه بالزند الذي يقدح به النار ، وجعله سقْطاً لأنه أول ما يخرج من الزند . وهذا الشعر أول ما سَمَح به طبعه في ربْق شبابه ، فسمّاه سقط الزّند تجوزاً واستعارة)[٦].
- ومن ذلك تسمية عماد الدين محمد بن محمد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ) كتابه الذي ذكر فيه تاريخ عصره في الشام ، بـ (البرق الشامي) . قال ابن خلكان ت ٦٨١ هـ : (بدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود ، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين ، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام ، وهو من الكتب الممتعة ، وإنما سمّاه البرق الشامي لأنه شبّه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف ، لطيبها وسرعة أنقضائها)[٧] .

أقول : وذلك على سبيل الاستعارة .

أما (البديع) فقد أُغري المؤلفون بالاستعانة بفنونه . ويأتي في مقدمتها السَّجْع ، وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير[٨] . والفاصلة في النثر هي كالقافية في الشعر[٩] . وأمثلته كثيرة جداً . منها :

- تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة ، لقطب الدين محمد بن أحمد القسطلاني ت ٦٨٦ هـ .
- و : حلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة ، للصفدي ت ٧٤٩ هـ .
- و : تذكرة من نسي بالوسط الهندسي ، لمحمد بن إبراهيم الحنبلي ت ٩٧٢هـ.

ولا تَقِلُّ عن مرتبة السجع في الكثرة مرتبة الجناس . وهو تشابه لفظين في النطق وأختلافهما في المعنى .

وقد أنتفع المصنفون من ثراء اللغة العربية بالألفاظ المشتركة في الصيغ والمختلفة في المعنى ، فرفدهم بأدوات التجنيس ، وأستعملوه في العنوان بأنواعه التي أُسجل أهمها في الآتي[١٠] :

١ - الجناس التام : وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في نوع الحروف ، وعددها ، وترتيبها ، وهيآت حركاتها وسكناتها . ومثاله :
- الألفاظ الجارية على لسان الجارية ، لأبي البركات بن الأنباري ت ٥٧٧هـ .
- و : حُسن التلخيص لتالي التلخيص ، للسيوطي .
- و : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، ت ١٠٨٩هـ

٢ - الجناس المحرّف : وهو ما اختلفت فيه اللفظتان في هيآت الحروف : حركاتها وسكناتها . ومثاله :
- الإشعار بأحكام الأشعار ، لأبن الجوزي .
- و : إنباه الرواة على أنباة النحاة ، لابن القفطي ، ت ٦٤٦هـ .

- و : غرر الصَّباح في وصف الوجوه الصِّباح ، لتقي الدين بن البـــدري ت ٨٩٤هـــ.

٣ - الجناس الناقص : وهو أن يقع تجانس اللفظين في الحروف والحركات مـــع الاختلاف في عدد الحروف . ومثاله :

- إعلام الساجد بأحكام المساجد ، لبدر الدين الزركشي ت ٧٩٤ هـــ .
- و : أحاسن اللطائف في محاسن الطائف ، للفيروز أبادي .
- و : إقدار الرائض على الفتوى في الفرائض ، لأبي إسحاق ابراهيم بن عمر السوسي ت ٨٥٨ هـــ .

٤ - جناس القلب : وهو ما أختلف فيه اللفظان في ترتيب الحروف . ومثاله :

- بعث الرغائب لبحث الغرائب ، لعمر بن محمد النسفي ت ٥٣٧ هـــــ . لخّص فيه كتاب الغريبين ، للهروي .
- و : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان .
- و : اقتناص النافر وانتقاص الوافر ، ديوان شعر لسُريجا بـــن محمـــد الملطي ت ٧٨٨هـــ .

٥ - الجناس المضارع : وهو الجمع بين كلمتين مجانستين لا تفاوت بينـــهما إلا بحرف واحد من الحروف المتحدة في المخرج أو المتقاربة فيه . ومثاله :

- غايات السرائر وآيات البصائر ، في التصوف ، ليونـــس بـــن حســـن المصري ، ألفه سنة ٨٩٦ هـــ . الغين والهمزة متفقان في المخـــرج ، وهما من حروف الحلق[١١] .
- و : أنشاب الكُتُب[١٢] في أنساب الكُتُب ، للسيوطي . ذكر فيه مروياته. الشي والسين من مخرجين متقاربين ، الأول من وسط اللسان ، والثاني من الفرجة التي بين طرف اللسان والثنايا العليا . وكذا الثاء والتـــاء ، الأول مخرجه ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليـــا ، والثـــاني مخرجه بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا[١٣] .

٦ - الجناس اللاحق ، وهو الجمع بين لفظين متجانسين لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتباعدة في المخرج . مثاله :

- رُفع الإصر عن قضاة مصر ، لابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ .

الهمزة والميم في (إصر ومصر) متباعدان في المخرج ؛ الأول من الحلق ، والثاني من الشفة[١٤] .

- و : غاية الإحسان في خلق الإنسان ، للسيوطي . الحاء والنون في (الإحسان والإنسان) متباعدان في المخرج أيضاً ، الأول من الحلق والثاني من طرف اللسان[١٥] .

وقد جمع الصفدي ، وهو من المولعين بتصنيع العنوان بين النوعين في كتابه (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) . فالحاء والفاء في (تصحيح التصحيف) متباعدان في المخرج . والراء والفاء في (تحرير التحريف) متقاربان في المخرج ، الأول ذلقي والثاني شفوي[١٦].

٧ - جناس التصحيف : وهو ما تماثل ركناه خطّاً واختلفا نقطاً . ومثاله :

- الإغراب في جدل الإعراب ، لأبي البركات بن الأنباري .
- و : محض النصائح ومخض القرائح ، لسليمان بن بنين الدقيقي ت ٦١٤ هـ .
- و : أصداق الأخبار في أخلاق الأخيار ، لأبي الفتح مُعافى الشيباني الموصلي ت ٦٣٠ هـ .

٨ - الجناس المزدوج : وهو أن يتوالى الجناسان مطلقاً من غير فصل بينهما إلا بحرف جرٍّ أو عطف أو ما يشبهه . ويسمّى المكرر والمردد . ومثاله :

- أحاسن المحاسن في المحاضرات ، للثعالبي ت ٤٢٩ هـ .
- و : زواهر الجواهر ، لأبن الجوزي .
- و : أبكار الأفكار في مشكل الأخبار ، في الحديث ، لعمر بن الوردي ت ٧٤٩هـ.

ومن أنواع البديع التورية : وهي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان : قريب غير مقصود ، وبعيد مقصود . فربما توهم السامع أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد المعنى الآخر ، وذلك كقول سراج الدين الوراق موريًا بكلمة (حبيب)[٢٧] :

أصون أديم وجهي عن أناس

نقاء الموت عندهم الأديب

وربّ الشعر عندهم بغيض

ولو وافى به لهم (حبيب)

ومن التوريات اللطيفة في العنوان ما جرى عليه أبو العلاء المعريّ في بعض ما ترك من كتب وسمها بـ :

- ذكرى حبيب ، في شرح مختصره لديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ت ٢٣١ هـ .
- و : عبث الوليد ، في الكلام على شعر أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري ت ٣٨٤ هـ .
- و : معجز أحمد ، في الكلام على شعر أحمد بن الحسين المتنبي ت ٣٥٤هـ .

ومنها الطباق : وهو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى . ومثاله :

- المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، لأبي الحسن الدار قطني ت ٣٨٥ هـ .
- و : تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي ، في القراءات ، لأبي محمد بعد الله بن علي سبط الخياط ت ٥٤١ هـ .
- و : القول الأوجز في ما يهمز وما لا يهمز ، لجمال الدين بن مالك النحوي ت ٦٧٢ هـ .

ومنها المقابلة : وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ، ومثاله :

- اتفاق المباني وافتراق المعاني ، في اللغة ، لسليمان بن بنين الدقيقي النحوي .
- و : فضائل البذل على العسر ورذائل البخل مع اليسر ، له أيضاً .
- و : جامع الفضائل وقامع الرذائل ، لمحمود الأسكداري ت ١٠٣٨ هـ.

ومنها مراعاة النظير : وهو الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد ، إمّا بين اثنين وإمّا بين أكثر . مثاله :

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، في التاريخ ، للمسعودي ت ٣٤٦ هـ. فلفظ (المروج) وهو جمع (مَرْج) بمعنى الوضع الذي ينبت فيه الكلأ فترعى فيه الدواب يناسب في معناه لفظ (المعادن) : جمع (مَعدن) وهو منبت الجواهر من ذهب ونحوه ، لإقامة أهله فيه[١٨] . وكذا لفظ (الذهب) يناسب لفظ (الجوهر) .
- و : منازل الأحباب ومنازه الألباب ، لناصر الدين بن النقيب ت ٦٧٨هـ.
- و : منازه الأبصار ومسارح الأفكار ، مجموعة في الآداب ، لأحمد بن نزهت الرومي ، فرغ من تأليفه سنة ١١٨٩ هـ .

ومنها المبالغة والإغراق : وهي الإفراط في وصف الشيء بالشدّة أو الضعف ، وبالقلة أو الكثرة ، بالممكن القريب وقوعه أو بالممكن البعيد وقوعه . ومما ورد في العنوان من أمثال هذا :

- قطر الندى وبلّ الصدى ، في النحو ، لأبن هشام الأنصاري ت ٧٦٢ هـ.
- و : القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط ، للفيروز أبادي .

ومن ذلك ما نبدأ به العنوانات من ألفاظ (الكافي) و (الوافي) و (الكامل) و (البحر الفياض ، والزخّار ...) وأمثالها كثير .

ومنها ائتلاف اللفظ مع المعنى : وهو أن تكون الألفاظ موافقة للمعاني ، فتختار الألفاظ الجزلة والشديدة للردّ والتوهين . والألفاظ الرقيقة واللينة للثناء والمدح ... وهكذا . ومثاله :

- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، للزمخشري ت ٥٣٨ هـ . وهو كتاب في المواعظ ونصوص مختارة في موضوعات تربوية .
- و : النسمات الفايحة في آيات الفاتحة ، لتاج الدين بن الدريهم الموصلي ت ٧٦٢هـ .
- و : الصواعق المحرقة على أهل الرفض والزندقة ، لابن حجر الهيثمي ت ٩٧٣هـ .

ومنها الأبداع : وهو أن يكون الكلام مشتملاً على أنواع من البديع والبيان، وفي قسم : مما مرّ أمثلة له . ومثاله أيضاً :

- شمس العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم ، لنشوان بن سعيد الحميري ت ٥٧٣هـ . وفيه من المحسنات الآتي :
  ١ - السجع ، وهو ظاهر .
  ٢ - الجناس المضارع بين لفظي العلوم والكلوم .
  ٣ - التشبيه المؤكد في (شمس العلوم) ، وقد حذفت منه الأداة وأضيف المشبه به إلى المشبه . والتقدير : العلوم التي كالشمس .
  ٤ - الاستعارة في (شفاء كلام العرب من الكلوم) إذ شبّه كلام العرب بالإنسان على سبيل الاستعارة المكنية بقرينة (شفاء) ثم قرنها بما يلائم المستعار منه ، وهو لفظ (الكلوم) تقوية للاستعارة . وهذا يسمّى ترشيح الاستعارة[١٩] .

ومنها العكس : وهو أن تقدم في الكلام جزءاً ثم تعكس ، بأن تقدم ما أخّرت وتؤخر ما قدّمت . مثاله :

- تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، للثعالبي .

- و : تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر ، في التفسير ، لموفق الدين الكواشي الموصلي ت ٦٨٠ هـ .
- و : فاتحة الإعراب في إعراب الفاتحة ، للأسفراييني ت ٦٨٤ هـ .

ومنها الترصيع : وهو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها . ومثاله :

- المشترك وضعاً والمختلف صقعاً ، لياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ .
- و : الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، القرافي ت ٦٨٤ هـ .
- و : أبواب السعادة في أسباب الشهادة ، للسيوطي .

ومنها الاقتباس : وهو أن يضّمن المتكلم منثوره أو منظومه شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف . ومثاله :

- الجَنى الداني في حروف المعاني ، لحسن المرادي ت ٧٤٦ هـ .
- و : جَنى الجنتين ، ديوان شعر لأبن حجّة الحموي ت ٨٣٧ هـ .

وكلاهما مقتبس من قول الله تعالى **(متكئين على فُرش بطائنها من استبرق وجَنى الجنتين دان)**[٢٠] .

- و : التحدث بنعم الله . للسيوطي . وفيه إشارة إلى قول الله عز وجل : **(وأما بنعمة ربّك فحدّث)**[٢١] .

ومنها التلميح : وهو الإشارة إلى قصة معلومة ، أو شعر مشهور ، أو مثل سائر . ومثاله :

- قيد الأوابد ، قصيدة في اللغة لإسماعيل بن إبراهيم الربعي ت ٤٨٠ هـ . وفيه إشارة إلى قول أمرؤ القيس في معلقته[٢٢] .

وقد أغتدي والطير في وكناتها

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

- و : جهينة الأخبار وجنينة الأزهار ، لمهذب الدين بن الخيمي ت ٦٤٢هـ . وفيه إشارة إلى المثل : (عند جهينة الخبر اليقين)[٢٣] .

وبعد ..

فهذه مقدمة في دراسة (عنوان الكتاب العربي) رسمت فيها الخطوط العريضة للمحسنات البلاغية التي طرّزته .

وأرى ، بعد هذا المطاف ، أن المؤلف ، وهو ينسج العنوان من خيوط العربية ، كانت تحدوه دوافع إلى سلوك هذه السبيل حتى صار سنّة يقلّد فيها اللاحقُ من سبقه .

من هذه الدوافع الحرصُ على إظهار قابليته على الصيغة في تأليف بديع الكلام ، ومقدرته على سبك العبارة .

ومنها أبراز القيمة التي يحملها الكتاب ، وذلك بأن يكون عنوانه لائقاً بالمكانة العالية التي تسنمها في النفوس ، فلا بدّ إذن من وسمه أو تسميته بأحلى الألفاظ .

ولم يغب عن بالِ المؤلف ما لفنون البلاغة من روعة وموقع حسن في النفس ، فأراد أن يطرُق سمع القارئ ، ويملأ بصره باللفظ الجميل وهو مُقدمٌ على على تصفح الكتاب أو قراءته .

كما أراد أن يحقق الميل إلى كتابه حين عرف أن تنغيم الألفاظ وخلق التناسب بينها يحدث إصغاءاً وأنتباهاً .

ولما كان القارئ آن إذاً مفتوناً بفنون القول ، مغرماً بالجرس ، جعل المؤلف العنوان مؤطراً بزخرف البديع ومحسناته ، كالجناس ، والسجع ، والطباق، والتلاؤم بين الألفاظ في القوة والليونة ؛ ليوحي بالمضمون إغراءً للناظر.

زد على هذا أنّ الكتاب من بنات فكر المؤلف ، ولا بدّ من الأحتفاظ بنسبته الصحيحة إليه . ولكي لا تختلط المصنفات وتضييع نسبتها إلى أصحابها جرى هؤلاء على أن يضعوا اسماً خاصاً لكل مصنف في الموضوع الواحد .

فكتب (النحو) مثلاً كثيرة ، ولكننا حينما نقرأ أو نسمع بهذه الأسماء : (سر صناعة الإعراب) و (المقتصد في شرح الإيضاح) و (مغني اللبيب عن كتب

الأعاريب) و (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) نستطيع أن نرجع كلَّ مصنوع إلى صانعه . ولو كان العنوان غير محدد ، وهو (كتاب في النحو) أو (كتاب في قواعد اللغة العربية) مثلاً لما تحققت النسبة الصحيحة في الغالب حين يختفي أسم المؤلف. لاسيما إذا ما علمنا أنّ الكتاب القديم كان مخطوطاً ومعرضاً للتلف وأختفاء اسم المؤلف . فبعنوانه يُستدلّ عليه .

أعود بعد هذا لأختم حديثي بالدعوة إلى الإفادة من عنوانات الكتب في درس البلاغة العربية ومادتها ، وذلك بالاستشهاد بها على فنون القول ما أمكن ، فهي نصوص أدبية بديعة تصلح للأحتجاج ، شأنها شأن (المثل) و (الحكمة) ، و (التوقيع الأدبي) .

الهوامش :

١ - ينظر في الحديث عن (الكتاب) : العقد الفريد ، لابن عبد ربّه : ٤/٢٠١-٢٠٥ ، وزهر الآداب ، للحصري : ١/١٤٢-١٥٠ واليواقيت في بعض المواقيت ، للثعالبي : ص١١١-١١٥ ، وربيع الأبرار ، للزمخشري : ٣/٢٣١-٢٤٠ .

٢ - ينظر في لغة (عنوان) : تهذيب اللغة ، للأزهري : ١٣/١١٠ ، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي : ٤/٢٥٠ ، وشرحه تاج العروس ، للزبيدي : ٩/٢٨٣.

٣ - ربيع الأبرار : ٣/٢٦٥-٢٦٦ .

٤ - ذكر الكتابين كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي : ١/٢٥٥-٢٥٦ .

٥ - سيأتي التمثيل بأسماء كتب كثيرة أردفتُ بعد كلّ : منها اسم مؤلفه وتاريخ وفاته من غير الإحالة إلى مصادر الاقتباس . وقد اعتمدت في ذكرها على المطبوع منها ، وعلى فهارس الكتب والمكتبات ، وفي مقدمتها : كشف الظنون ، للحاج خليفة . وذيله : إيضاح المكنون ، لإسماعيل البغدادي ، وعلى تاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان .

٦ - ترتيب الأمثلة هنا جاء على حسب المعاني التي تقدم ذكرها .

٧ - كشف الظنون : ٢/٩٩٢ .

٨ - وفيات الأعيان : ٥/١٥٠ .

٩ - جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ص ٤٠٦ .

١٠ - اعتمدت في بيان معاني أنواع الجناس على كتاب (فن الجناس) للدكتور علي الجندي ، الصفحات ٦٢ و ٨٧ و ٩٣ و ١٠١ و ١٣٢ و ١٣٦ و ١٤٠ و ١٦٠ .

١١ - التحديد في الأتقان والتجويد ، للداني ص١٠٤-١٠٥ .

١٢ - الكُتُب ، بضمتين ، جمع الكتب : التل ، وأنشاب ، جمع نَشَب ، المال الأصيل .

١٣ - التحديد في الاتقان والتجويد : ص١٠٤-١٠٥ .

١٤ - المصدر نفسه : ص١٠٥-١٠٦ .

١٥ - المصدر نفسه .

١٦ - المصدر نفسه .

١٧ - المحسنات البديعية التي سأذكرها اعتمدت في بيان معانيها على كتاب (جواهر البلاغة) الصفحات : ٣٦٢ و ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٨٠ و ٣٨٥ و ٣٨٧ و ٣٩٢ و ٤٠٦ و ٤١٤ و ٤١٨ .

١٨ - القاموس المحيط : ٢٠٧/١ و ٢٤٧/٤ .

١٩ - ينظر معنى الاستعارة المرشحة في جواهر البلاغة ص٣٣٠ .

٢٠ - سورة الرحمن : الآية ٥٤ .

٢١ - سورة الضحى : الآية ١١ .

٢٢ - ديوان أمرؤ القيس ص١٩ .

٢٣ - المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ١٦٩/٢ .

المصـادر :

١ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنـــون ، إسـماعيل البغـدادي ، (ت) ب.ت .

٢ - تاج العروس من جواهر القاموس ، مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) مصـر ١٣٠٦ هـ .

٣ - تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان . ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار (ط٢) ، القاهرة ١٩٦٨ م .

٤ - التحديد في الاتقان والتجويد ، لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) تحقيـق الدكتور غانم قدوري ، مطبعة الخلود ، بغداد ١٩٨٨ م .

٥ - تهذيب اللغة ، الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) ج١٣ تحقيق أحمد عبـد الحليـم البردوني ، القاهرة ، ب.ت .

٦ - جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، مصر ١٩٦٠ .

٧ - ديوان أمرؤ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضـل إبراهيـم ، ط٣ ، مصـر ١٩٦٩ م .

٨ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، الزمخشري (ت٥٣٨ هـ) . تحقيـق الدكتور سليم النعيمي ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

٩ - زهر الآداب وثمر الألباب ، الحصري القيرواني (ت ٤١٣ هـ) تحقيـق علي محمد البجاوي ، ط٢ ، مصر ١٩٦٩ م .

١٠ - العقد الفريد ، ابن عبد ربّه (ت ٣٢٧ هـ) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزيـن وإبراهيم الأبياري ، مصر ١٩٦٥ م .

١١ - فن الجناس ، الدكتور علي الجندي ، القاهرة ١٩٥٤ م .

١٢ - القاموس المحيـط ... الفـيروز أبـادي (ت ٨١٧ هـ) ط٢ ، مصـر ١٣٤٤هـ.

١٣ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . الحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) بيروت ب.ت .

١٤ - المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ، بيروت ط٢ ، ١٩٨٧ م .

١٥ - وفيات الأعيان .. أبن خلكان (ت ٦٨١ هـ) تحقيق الدكتور إحسان عباس (ج٥) بيروت ١٩٧٧ م .

١٦ - اليواقيت في بعض المواقيت في مدح الشيء وذمّه ، الثعالبي (ت٤٢٩هـ) تحقيق محمد جاسم الحديثي ، بغداد ١٩٩٠ م .